اللغة العربية والفهم التعسفي للنص القرآني

د. فلاح عبد الحسن هاشم

جامعة البصرة

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم علوم القرآن

ملخص البحث

مشكلة البحث تتمثل في معرفة مستوى تأثير اللغة العربية وأسرارها وعناصرها ومقوماتها في فهم القرآن الكريم والنص الديني عموماً. وهدف البحث يتمثل في كشف أهمية اللغة العربية بمقوماتها نظاماً وفهماً ودلالة وفلسفة وتعمقاً وإعجازاً، وأثر ذلك في الفهم الحقيقي للدين الإسلامي الذي أسسه النص القرآني، هذا الدين الذي يقع تحت مظلته الأخلاق والعقيدة والفقه العملي.

لا شك في أن اللغة العربية بما تحمل من مقومات وخصائص فريدة، وبحظها الأوفر في أنها كانت لغة القرآن الكريم ولغة نبي الإسلام، كل ذلك جعل من هذه اللغة الركيزة الأولى والأساس لفهم النص الديني الإسلامي، سواء أ كان هذا النص قرآنياً أم نصاً نبوياً، ولا شك في أن فهم تلك الخصائص والمقومات التي امتازت بها هذه اللغة تزداد أهميته في زمن اكتنف النص الديني كثير من الغموض والملابسات حتى أضحت اللغة الدينية ثقيلة الفهم، ولا تحظى – القرآنية منها – بمتعة ولذة كانت يوماً لا تنفك عنها، بل تصل تلك الأهمية إلى أنها تمثل الحياة والموت عندما يكون الخطاب الديني المعاصر للجماعات المتطرفة في تفسيرها منساقاً مع الجمود الفكري الذي يحمل أيديولوجيات سياسية ذات أهداف مشبوهة، ارتكزت في جملة من خطابها على عناصر لغوية زعمت صحتها، مع أنه وفقاً للمعايير اللغوية العربية يعد ذلك التفسير شاذاً أو غريباً أو نادراً، ووفق هذا الخطاب المتحيز البعيد عن تلك المعايير تم غرس مفاهيم بعيدة عن واقع الدين بل وتسيء له، وتم الإفتاء بنحو تعسفي بالقتل والتكفير، في حين أن النصوص الدينية لا سيما النص القرآني كانت لغته الخطابية الهادفة الهادية أفصح اللغات، وكانت واضحة المعنى بلحاظ جميع العناصر الدخيلة في كشف المدلول الواقعي للنص، هذه العناصر التي رفضها الخطاب المتطرف والمتعسف، كالعنصر السياقي، والعنصر المقاصدي العام الذي تسير اللغة في إطاره، قد أسهم ذلك إلى حد كبير في تشويه النص الديني عموماً والقرآني خصوصاً.

إن اللغة العربية تمتلك رصيداً كبيراً من الخصائص النوعية التي لا تمتلكها لغة أخرى، كما أنها لغة لها قدرة فائقة على أداء المعنى بأقل الألفاظ من دون أن تفقد سحرها وجاذبيتها بل قد تزداد جمالاً وروعة في الاختصار –على حد تعبير بعض العلماء– كالمرأة التي تتألق جمالاً كلما أخفت أجزاء جسدها.

المبحث الأول: اللغة العربية وخصائصها وأهميتها

أولا: مفهوم اللغة

اللغة في استعمال العرب على وزن فعلة وأَصلها لُغْوة من لَغا إذا تكلم. وقيل أصلها لغي أو لغو [١]. ولهذا قال في مقاييس اللغة: "لغو": اللام والغين والحرف المعتل أصلان صحيحان أحدهما يدل على الشيء لا يعتد به والآخر على اللهج بالشيء. الأول اللغو ما لا يعتد به من أولاد الإبل في الدية. والثاني قولهم لغى بالأمر إذا لهج به[٢].

أما اصطلاحاً فلم يكن اتفاق على تعريف واحد للغة، بل هناك عدة تعريفات، وربما أقدم تعريف اصطلاحي عند علماء العرب هو تعريف ابن جني (٣٢٢ هـ)، قال: "**أما حدّها فإنها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم**"[٣] فهي أصوات ووظيفتها الأساس هي التواصل الاجتماعي القائم على أساس التفاهم في كل قوم من الأقوام ومن ثم فهي ظاهرة اجتماعية.

وعرفها ابن الحاجب (٥٧٠هـ) في مختصره بأنه: "**كل لفظ وضع لمعنى**"[٤] وهو تعريف مختصر جداً ولا يكون شاملاً، فاللفظ –كما سيأتي– أحد الوسائل التي توصل المعنى.

وعرفها ابن خلدون (٨٠٨هـ)، قال: "**اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلِّم عن مقصوده، وتلك العبارة فعلٌ لسانيٌّ ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملَكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو في كلِّ أمة بحسب اصطلاحاتهم**"[٥].

ويظهر من تعريفه أن وظيفة اللغة إيصال المعاني المقصودة في كل أمة بخصوصها، وبحسب تواضعهم واتفاقهم على الدال والمعنى الخاص به، وبهذا يتفق مع ابن جني في أن اللغة ظاهرة اجتماعية. وقد تشير كلمة "اصطلاحاتهم" للخلاف في أن دلالة الألفاظ على المعاني تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف من الله تعالى[٦].

ويتجه "دي سوسير" اتجاهاً مغايراً لما مر من تعريفات للّغة، فهو ينكر أن تكون اللغة مجرد أصوات، وهي نظام اجتماعي كما أنها نظام من العلامات أو الإشارات التي تعبّر عن الأفكار، وعلم اللغة هو جزء من علم الإشارات العام [٧]. كما أن دراسة الطقوس والعادات والتقاليد وغيرها بوصفها إشارات أيضاً تساعدنا على إلقاء ضوء جديد على حقيقة اللغة، وإبراز الحاجة إلى ضم هذه الأمور إلى معجم الإشارات[٨]. وأن الإشارة اللغوية تربط بين الفكرة والصورة الصوتية، وليس بين الشيء والتسمية. ولا يقصد بالصورة الصوتية الناحية الفيزيائية للصوت، بل الصورة النفسية له، أي الانطباع أو الأثر الذي تتركه في الحواس، إذن فالصورة الصوتية هي حسية لها علاقة بالحواس، وأما الفكرة فهي أكثر تجريداً من الصورة الصوتية، وهذه الصورة الصوتية تصبح واضحة عند ملاحظتنا لألسنتنا (لغتنا الخاصة)، فنحن نستطيع أن نتكلم إلى أنفسنا أو نتلو في ذهننا قصيدة من غير أن نحرك شفاهنا. فالإشارة اللغوية إذن هي كيان نفسي، له جانبان: الفكرة

والصورة الصوتية[٩]. وهكذا يتضح أن اللغة ليست مجرد اتفاق وتواضع أو عقد، بل إن أي حالة من حالات اللغة هي دائما نتاج للقوى التاريخية[١٠].

وفي سياق فصله اللغة –كنظام– عن الكلام، يعتقد سوسير أن الكلام ضرورة لتثبيت أركان اللغة يأتي أولاً من الناحية التاريخية؛ إذ كيف يمكن للمتكلم أن يربط فكرة ما بصورة للكلمة إذا لم يكن قد وجد مثل هذا الربط في أحد أفعال الكلام؟ فاللغة نظام متميز كما يراه سوسير، لا تستقر في الدماغ إلا بعد عدد لا يحصى من الخبرات، وأخيراً يكون الكلام هو السبب في تطور اللغة. فالانطباعات التي نحصل عليها نتيجة الإصغاء إلى الآخرين تتجمع فتؤدي إلى تطوير السلوك اللغوي عندنا. فاللغة والكلام يعتمد أحدهما على الآخر، مع أن اللغة هي أداة الكلام وحصيلته؛ لكن اعتماد أحدهما على الأخر لا يمنع من كونهما شيئين متمايزين تماماً. اللغة موجودة على هيئة ذخيرة من الانطباعات مخزونة في دماغ كل فرد من أفراد مجتمع معين، وفي الوقت ذاته هي موجودة عند المجموع، وهي لا تتأثر برغبة الأفراد الذين تُخزن عندهم. فالنظر إلى اللغة والكلام من وجهة نظر واحدة أمر بعيد عن الحقيقة[١١].

كما أنه يرفض أن تعرف اللغة بأنها أصوات، فالصوت في الكلام وحدة مركبة من نطق وسمع، يرتبط بفكرة؛ ليكوّن وحدة فسيولوجية سيكولوجية مركبة. بينما **اللغة نتاج اجتماعي لملكة اللسان، ومجموعة من التقاليد الضرورية التي تبناها مجتمع؛ ليساعد أفراده على ممارسة هذه الملكة**[١٢]. وخزن اللغة في عقول أفراد مجتمع معين، يكون عن طريق الاستعمال الفعال للكلام، وهو نظام نحوي، له وجود خامد في دماغ كل فرد، أو بأسلوب أدق: في أدمغة مجموعة من الأفراد، فاللغة لا توجد كاملة في الفرد، بل يكتمل وجودها في المجموعة. إن الفصل بين اللغة والكلام يعني أيضاً الفصل بين ما هو اجتماعي وما هو فردي، الفصل بين ما هو جوهري وما هو ثانوي وعرضي إلى درجة ما. فاللغة ليس وظيفة الفرد، بل هي نتاج يهضمه الفرد بصورة سلبية ولا تحتاج إلى تأمل سابق. أما الكلام فعلى العكس من ذلك، فهو فعل فردي عقلي مقصود[١٣].

ومن مجموع ما تقدم يستنتج بعض المفكرين المعاصرين: أن العالم اللغوي "دي سوسير" قد أحدث ثورة في النظام اللغوي، بأن أضاف إلى مفهوم العلامات بعداً آخر، فهو وإن كان يرى أن بين اللفظ الدال والمعنى المدلول علاقة اصطلاح ومواضعة إلا أنه قد عمّق من مفهوم الدال ومفهوم المدلول، فذهب إلى أن اللفظ الدال ليس هو الصوت الملفوظ أو الرمز المكتوب، بل هو الصورة السمعية، ويقصد بها الأثر النفسي الذي يتركه فينا الصوت المسموع أو الرمز المكتوب، وهذا الدال لا يحيل إلى واقع الشيء المرتبط به، بل يحيل إلى مفهوم ذهني متحقق ضمن مجموعة من المفاهيم قارة ومرتكزة في الذهن. وعندما نتفحص كلامنا بدقة تبدو الخاصية النفسية لصورنا السمعية واضحة، وبإمكاننا دون أن نحرك شفتينا ولساننا أن نتكلم مع أنفسنا كأن نستعيد مثلاً قطعة شعرية أو مناقشة مع صديق.

والنتيجة التي توصل لها دي سوسير أن العلاقة اللغوية عبارة عن وحدة نفسية مزدوجة يترابط فيها العنصران المفهوم والصورة السمعية ارتباطا وثيقا بحيث يتطلب وجود أحدهما وجود الثاني.

هذا التصور الذي صاغه دي سوسير أنهى فيه التصور التقليدي عن علاقة اللغة بالعالم بوصفها تعبيرا مباشراً عن هذا العالم. وهكذا أصبحت العلاقة بين اللغة والعالم محكومة بأفق المفاهيم والتصورات الذهنية الثقافية؛ لإنها لا تعبّر عن العالم الخارجي الموضوعي القائم؛ إذ أن هذا العالم وإن كان له وجود، لكنه يعاد إنتاجه في مجال التصورات والمفاهيم(١٤).

وخلاصة القول: إن اللغة لا تقتصر على دلالات صوتية ومدلولات ذهنية، بل أفق اللغة أبعد من ذلك، فهناك عناصر دخيلة في اللغة تساهم في تحديد المعاني والمفهومات التي يراد تحديدها وهي لا تنفك عن النظام السياسي والاقتصادي أيضاً، فضلاً عن الجانب الثقافي والعرفي. ومن هنا يمكن القول إن اللغة هي ما تظهر وتتحقق في صور مختلفة من الكلام الإنساني، أو هي نظام اجتماعي معين، تتكلمه جماعة معينة بعد أن تتلقاه عن المجتمع وتحقق به وظائف معينة، ينتقل من جيل إلى جيل؛ فيمر بأطوار من التطور؛ متأثراً في ذلك بسائر النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية، وغير ذلك"(١٥).

من هنا لا بد أن تدخل في اللغة بحوث اجتماعية وغيرها؛ بهدف بيان العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية، وأثر المجتمع وحضارته ونظمه وتاريخه وتركيبه وبيئته الجغرافية في مختلف الظواهر اللغوية، وهذه البحوث، وجميع فروع علم اللغة بحاجة لها(١٦). ولهذا علماء الاجتماع قد أخذوا على القدامى من علماء اللغة بهذا الصدد مآخذ كثيرة ترجع إلى تقصيرهم في بيان العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية، وانحرافهم أحياناً عن جادة الصواب في هذا السبيل، وتفسيرهم لبعض الظواهر اللغوية تفسيراً خاطئاً، يبعد بها عن المجتمع وشؤونه، ولذلك أنشأوا فرعاً خاصاً في علمهم سموه علم الاجتماع اللغوي، وعالجوا فيه الظواهر اللغوية بطريقةٍ تكشف عن العلاقات التي تربطها بمختلف الظواهر الاجتماعية(١٧).

ثانياً: خصائص اللغة العربية وأسرارها

اللغة العربية طالما هي لغة إنسانية، ومن دون شك في أنها تحظى بصفات وطابع خاص بها يميزها عن غيرها، ومن أهم ما تمتاز به اللغة العربية أنها أوسع اللغات السامية تأثيراً في أصول الكلمات والمفردات، فقد اشتملت على جميع الأصول التي اشتملت عليها أخواتها من اللغات السامية أو على معظمها، مضافاً إلى هذه الميزة، قد جمعت من المفردات والمترادفات ما لم تجتمع للغة سامية أخرى في مختلف أنواع الكلمات، اسمها وفعلها وحرفها(١٨). ويؤكد هذه الحقيقة ابن فارس بقوله: إن "لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها، قال تعالى: **(بلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)**(١٩) فوصفه بأبلغ ما يوصف به الكلام، وهو البيان، وقال تعالى: **(خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)**(٢٠) فقدم ذكر البيان على جميع ما توحد الله بخلقه، فلما خص تعالى اللسان العربي بالبيان علم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه"(٢١) وهكذا هو قول السيوطي في المزهر(٢٢) وغيره.

ولو أردنا أن نتكلم بإيجاز عن أهم خصائص هذه اللغة، لعل أول ما يلفت الانتباه أنها تزخر بوفرة المترادفات كالبحر لا يسبر غوره ولا تحصى درره، حتى ألف بعضهم كتباً في المترادفات، مثل كتاب الروض المسلوف في لغة العرب لمجد الدين الفيروزآبادي.

هذه المترادفات لا تتفق تماماً في المعنى كما قد يتوهم، بل هناك فارق دقيق فيما بين مدلولاتها، وهذا هو أحد الآراء الذي اختاره ابن فارس في كتابه فقه اللغة. وعدم الوقوف على الفوارق الدقيقة في كثير من المترادفات؛ لعدم الاعتناء بالجاهلية في تحديد معانيها وتدوينها، فإن لغة العرب لم تنته إلينا بكليّتها، وأن الذي جاء من العرب قليلٌ من كثير، وأن كثيراً من الكلام ذهب بذهاب أهله[٢٣]. فكل كلمة من المترادفات تدل على حالة خاصة تختلف بعض الاختلاف عن الحالة التي يدل عليها غيرها، فكلمات مثل رمق ولحظ وحدج وشفن ورنا وغيرها مما يدل على النظر، فإن كلّاً منها يعبر عن حالة خاصة للنظر، فـ"رمق" تدل على النظر بمجامع العين، و"لحظ" على النظر من جانب الأذن، و"حدج" معناه رماه ببصره مع حدة، و"شفن" يدل على نظر المتعجب الكاره، و"رنا" تفيد إدامة النظر في سكون، وهلم جراً[٢٤].

ومن مزايا هذه المترادفات إنها تُعين على إفراغ المعنى في قوالب متعددة، ونَظْمها في سلك من البلاغة، ولا تنكر مزاياها في النظم والسجع، فبتعددها يسهل تخير ما طابق المعنى، فيأتي الكلام جزيلاً بليغاً، ولولا المترادف في اللغة العربية لم تبلغ ذلك المستوى من الجلال والعظمة والروعة، ولولا المترادفات لم يكن بالمقدور بناء المئات من الأبيات في قافية شعرية واحدة. وقد تفيد التأكيد والمبالغة مثل: هند أتى من دونها النأي والبعد[٢٥].

وهنا لا بد أن نسجل نقطة مهمة تنفعنا في فهم القرآن على النحو الصحيح، وهي أن الترادف في اللغة العربية قد وقع خلاف فيه، بين مثبت له في اللغة العربية وبين منكر له، وكل طرف له أدلته، لكن ثمة شبه إجماع على أن الترادف غير ثابت في الاستعمال القرآني، وهذا يفرضه طبيعة الكلام القرآني ودقة اختيار الألفاظ، وهو مقتضى الفصاحة والنظم اللذين يمثلان وجه الإعجاز البياني في القرآن. وفي هذا السياق يقول الزركشي: "على المفسر مراعاة الاستعمالات والقطع بعدم الترادف ما أمكن؛ فإن للتركيب معنى غير معنى الإفراد، ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الآخر في التركيب، وإن اتفقوا على جوازه في الإفراد"[٢٦]

والخاصية الأخرى المهمة: أن اللغة العربية قد تميزت بكونها أوسع أخواتها وأدقها في قواعد النحو والصرف، فجميع القواعد التي تشتمل عليها اللغات السامية الأخرى توجد لها نظائر في العربية، بينما تشتمل العربية على قواعد كثيرة لا نظير لها في واحدة منها، أو توجد في بعضها في صورة بدائية ناقصة[٢٧].

والخاصية الثالثة: أنها أوسع أخواتها ثروة في أصول الكلمات والمفردات، فهي تشتمل على جميع الأصول التي تشتمل عليها أخواتها السامية أو على معظمها، وتزيد عليها بأصول كثيرة احتفظت بها من اللسان السامي الأول، ولا يوجد لها نظير في أخت من أخواتها، فضلاً عما تجمّع فيها من المفردات في